عرائس المروج

جبران خليل جبران

رماد الأجيال و النار الخالدة

1

توطئة

(في خريف 116 قبل الميلاد)

سكن الليل و رقدت الحياة في مدينة الشمس(*) و أطفئت السرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين أشجار الزيتون و الغار، و طلع القمر فانسكبت أشعته على بياض الأعمدة الرخاميّة المنتصبة كالجبابرة تخفر في هدوء الليل مذابح الآلهة ، وتنظر تيهاً و إعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحدة بين أرواح النيام و أحلام اللانهاية ، جاء ناثان ابن الكاهن حيرام ودخل هيكل عشتروت (**) حاملاً مشعلاً ، و بيد مرتجفة أنار المسارج و أوقد المباخر فتصاعدت روائح المر و اللبان ، ووشحت تمثال المعبودة بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري ، ثم ركع أمام المذبح المصفّح برقوق العاج و الذهب و رفع يديه و نظر نحو العلاء و من عينيه الدموع تستدر الدموع ، و بصوت تخفضه الغصّات الأليمة تقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً : " رحماك يا عشتروت العظيمة - رحماك يا ربّة الحبّ و الجمال ، ترأفي بي و أزيلي يد الموت عن حبيبتي التي اختارتها نفسي بمشيئتك..لقد نبت أعاصير الأطباء و مساحيقهم ، و باطلاً ضاعت تعازيم الكهّان و العرافين ، و لم يبق لي غير اسمك المقدس عوناً و مساعداً ، فاستجيبي تضرّعاتي ، و انظري انسحاق قلبي و توجّع عواطفي ، و أبقي شطر نفسي حيًّا بجانبي ، لنفرح بأسرار محبّتك و نسعد بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدك . من هذه الأعماق أصرخ إليك يا عشتروت المقدّسة . من وراء ظلمة هذا الليل استجير بحنانك .فاسمعيني أنا عبدك ناثان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك - قد أحببت صبيّة من بين الصبايا و اتخذتها رفيقة فحسدتنا عرائس الجان و نفثن في جسدها اللطيف لهاث علّة غريبة ، ثم بعثن رسول المنايا ليقودها إلى مغاورهنّ السحريّة ، و هو هو الآن رابض بقرب مضجعها ، يزمجر كالنمر الجائع ، مخيماً عليها بأجنحته السوداء ، مادًّا مقابضه الخشنة ليغتالها من بين ضلوعي . من أجل ذلك جئت إليك متذلّلا ، فارحميني و أبقيها زهرة لم تفرح بعد بجمال صيف الحياة ، و طائراً لم يكمل تغريدة مسرّته لمجيء فجر الشبيبة . أنقذيها من بين أظفار الموت فنبتهج بأغاني مدائحك ، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك ، ناحرين الضحايا على مذبحك ، مالئين بالخمر القديمة و الزيت المطيّب آنية خزائنك ، فارشين بالورود و الياسمين رواق هيكلك ، محرقين البخور و العود الذكيّ الرائحة أمام تمثالك . خلّصينا يا ربّة المعجزات و دعي المحبّة تغلب الموت ، فأنت ربّة الموت و المحبّة "

و سكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً و تتصاعد تنهّدا . ثم عاد فقال : "أواه! لقد تضعضعت أحلامي يا عشتروت المقدّسة و ذابت حشاشتي و مات قلبي في داخلي و التهبت الدموع في عيني ، فأحييني بالرأفة و أبقي لي حبيبـــتي !" . و دخل إذ ذاك عبد من عبيده و اقترب منه ببطء و همس في أذنه هذه الكلمات : " لقد فتحت عينيها يا سيّدي و نظرت حول مضجعها فلم ترك ثم نادتك بلجاجة فجئت لأدعوك إليها " .

فقام ناثان و مشى مسرعاً والعبد يتبعه . و لما بلغ صرحه دخل حجرة العليلة و انحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه مقبّلًا شفتيها مراراً كأنه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته ، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند الحريريّة و فتحت أجفانها قليلاً ، و ظهر على شفتيها خيال ابتسامة هي بقيّة الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر أشعة من نفسها المودّعة – هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف . ثمّ

قالت و مقاطع صوتها تشابه أنفاس طفل الفقيرة الجائع : " قد نادتني الآلهة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ليفصلني عنك ، فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدّسة و مطالب الموت عادلة . أنا ذاهبة الآن و كأسا الحبّ و الشبيبة ما برحتا طافحتين في أيدينا ، و مسالك الحياة الجميلة مازالت منبسطة أمامنا . أنا راحلة يا حبيبي إلى مسارح الأرواح و سوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة ترجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبدية قبل أن يتمتّعوا بملذّات الحبّ و غبطة الشبيبة (***). سوف نلتقي يا ناثان و نشرب معاً ندى الصباح من كؤوس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعّة الشمس . إلى اللقاء يا حبيبي !" .

و انخفض صوتها و بقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة أقاح ذابلة أمام نسيمات الفجر ، فضمّها حبيبها و بلل عنقها بالعبرات ، ولما قرّب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج ، فصرخ صراخاً هائلاً و مزّق ثوبه و ارتمى على جثّتها الهامدة و روحه المتوّجعة تراوح بين لجج الحياة و هاوية الموت .

في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين و جزعت نساء الحي و ذعرت أرواح الأطفال إذ تبطّنت ملابس الدجى بنواح موجع و بكاء مرّ و عويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت .

و لما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه و يؤاسوه في مصيبته فلم يجدوه .

و بعد أيّام جاءت قافلة من المشرق أخبر زعيمها أنّه رأى ناثان تائهاً في البريّة البعيدة مع أسراب الغزلان .

***

مرّت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة أعمال الأجيال ، و بعدت الآلهة عن البلاد و حلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم و يبهجها التخريب ، فدُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة وتقوّضت قصورها الجميلة و يبست حدائقها النضرة ، و أجدبت حقولها الخصبة ، و لم يبق في تلك البقعة غير طللٍ بالٍ يعيد للذاكرة أشباح الأمس فيؤلمها ، و يرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها .

و لكن الأجيال التي تمرّ و تسحق أعمال الإنسان لا تفني أحلامه ، و لا تضعف عواطفه .

فالأحلام و العواطف تبقى ببقاء الروح الكلّي الخالد ، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل و بالقمر عند مجيء الصباح .

(في ربيع سنة 1890 لمجيء يسوع الناصري)

توارى النهار و اضمحلّ النور و لمّت الشمس وشاحها عن سهول بعلبك ، فعاد عليّ الحسيني (****) أمام قطيعه نحو خرائب الهيكل ، و هناك جلس بين الأعمدة الساقطة كأنها أضلع جنديّ متروك مزّقتها الهيجاء و جرّدتها العناصر ، فربضت أغنامه حوله مستأمنة بأنغام شبّابته .

انتصف الليل , وألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته ، فتعبت أجفان عليّ من أشباح اليقظة و كلّت عاقلته من مرور مواكب الأخيلة السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران المهدومة ، فاتّكأ على زنده ، و اقترب النعاس ولامس حواسه بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة الهادئة ، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفيّة المفعمة بالأحلام المترفعة عن شرائع الإنسان و تعاليمه ، واتسعت دوائر الرؤيا أمام عينيه ، و انبسطت له خفايا الأسرار ، فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء ووقفت وحدها أمام الأفكار المتناسقة و الخواطر المتسابقة ، و لأوّل مرة في حياته عرف أو كاد يعرف أسباب المجاعة الروحيّة الملاحقة شبيبته . تلك المجاعة التي توحّد بين حلاوة الحياة و مرارتها . ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين و سكينة الاستكفاء . ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم و لا تثنيه مجاري العمر . لأوّل مرّة في حياته شعر عليّ الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل . عاطفة رقيقة هي الذكرى بمنزلة البخور من المجامر . عاطفة سحريّة قد انعكفت على حواسه انعكاف أنامل الموسيقيّ على صفوف الأوتار . عاطفة جديدة قد انبثقت من اللاشيء ، أو من كلّ شيء ، و نمت و تدرّجت حتى عانقت كلّيته المعنويّة و ملأت نفسه بشغف مدنف بلطفه و توجّع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته . عاطفة تولّدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس ، ومن دقيقة واحدة تتولد رسوم الأجيال مثلما تتناسل الأمم من نطفة واحدة .

نظر عليّ نحو الهيكل المهدوم وقد تبدّل النعاس بيقظة روحيّة فظهرت بقايا المذبح المخدّشة و اتضحت أماكن الأعمدة المرتمية و أسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه و خفق قلبه ، و مثل ضرير عاد النور إلى عينيه فجأة فصار يرى و يفكّر و يتأمّل- يفكّر ويتأمّل- ومن تموّجات التفكر و دوائر التأمّل تولّدت في نفسه أشباح الذكرى فتذكّر – تذكّر تلك الأعمدة منتصبة بفخر و عظمة . تذكّر المسارج و المباخر الفضيّة محيطة بتمثال معبودةٍ مهابة . تذكّر الكهّان الوقورين يقدّمون الضحايا أمام مذبح مصفح بالعاج و الذهب . تذكّر الصبايا الضاربات الدفوف و الفتيان المترنّمين بمدائح ربّة الحبّ و الجمال . تذكّر و رأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة وشعر بتأثيرات غوامضها تحرّك سواكن أعماقه . و لكن الذكرى لا تعيد غير أشباح الأجسام التي نراها فيما غبر من أعمارنا ولا يرجع إلى مسامعنا إلا صدى الأصوات التي وعتها آذاننا . فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحريّة و ماضي حياة فتى ولد بين المضارب و صرف ربيع عمره يرعى قطيعاً من الغنم في البريّة؟

قام عليّ و مشى بين الحجارة المتقوّضة و تذكاراته البعيدة تزيح أغشية النسيان عن مخيّلته مثلما تزيل الصبيّة نسيج العنكبوت عن بلّور مرآتها . حتى إذا ما بلغ صدر الهيكل وقف كأنّ في الأرض جاذباً يتمسك بقدميه ، فنظر و إذا به أمام تمثال مهشّم ملقى على الحضيض ، فركع بجانبه على غير هدى وعواطفه تتدفق في أحشائه مثلما يتسارع نزيف الدماء من جوانب الكلوم البليغة ، و نبضات قلبه تتكاثر و تتهامل مثل أمواج البحر المتصاعدة المنخفضة فخشع بصره و تأوّه بمرارة و بكى بكاءً أليماً لأنه شعر بوحدة جارحة و بعاد متلف فاصل بين روحه و روحٍ جميلةٍ كانت بقربه قبل مجيئه إلى هذه الحياة .

شـعر بأن جوهر نفسـه لم يكن غير شطر من شـعلة متّقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدّهر .

شـعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين أضلعه الملتهبة و حـول لفائف دماغـه المنحلّة .

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه و يمتلك أنفاسه ، ذلك الحبّ الذي يبيح مكنونات النفس للنفس و يفصل بتفاعيله بين العقل و عالم المقاييس و الكمّية ، ذلك الحبّ الذي نسمعه متكلّما عندما تخرس ألسنة الحياة و نراه منتصباً كعمود النور عندما تحجب الظلمة كلّ الأشياء . ذلك الحبّ ، ذلك الإله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس عليّ الحسيني و أيقظ فيها عواطف حلوة و مرّة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الأشواك .

ولكن ما هذا الحبّ ، و من أين أتى ، و ماذا يريد من فتىً رابضٍ مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة ؟ و ما هذه الخمرة السائلة في كبد لم تحرّكها قط لواحظ الصبايا ؟ و ما هذه الأغنية السماويّة المتموّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء ؟

ما هذا الحبّ ، و من أين أتى ، و ماذا يريد من عليّ المشغول عن العالم بأغنامه و شبّابته ؟ هل هي نواة ألقتها محاسن بدويّة بين أعشار قلبه على غير معرفة من حواسه ، أم هو شعاع كان محتجباً بالضباب و قد ظهر الآن لينير خلايا نفسه ؟ هل هو حلمٌ سعى في سكينة الليل ليسخر بعواطفه ، أم هي حقيقة كانت منذ الأزل و ستبقى إلى آخر الدهر ؟

أغمض عليّ أجفانه المغلقة بالدموع و مدّ يديه كالمتسوّل المستعطف و ارتعشت روحه في داخله و من ارتعاشاتها المتواصلة انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلّل الشكوى و حرقة الشوق ، و بصوت لا يميّزه عن التنهّد غير رنّات الألفاظ الضعيفة هتف قائلاً :

" من أنت أيّتها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ، الفاصلة بيني و بيني ، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسيّة ، أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بُطل الحياة و ضعف البشر ، أم روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق الأرض لتسترق منّي عاقلتي و تجعلني سخرية بين فتيان عشيرتي ؟ من أنت و ما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي ؟ و ما هذه المشاعر المالئة جوانحي نوراً و ناراً ؟ و من أنا و ما هذه الذات الجديدة التي أدعوها (أنا) و هي غريبة عني ؟ هل تجرّعْت ماء الحياة مع دقائق الأثير فصرت ملاكاً أرى و أسمع خفايا الأسرار ، أم هي خمر وساوس سكرت بها فتعاميت عن حقائق المعقولات ؟ " .

و سكت دقيقة و قد نمت عواطفه و تسامت روحه فقال : " يا من تبينها النفس و تدنيها و يحجبها الليل و يقصيها ـ أيتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء أحلامي , قد أيقظت في باطني عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت أطباق الثلج ، و مررت كالنسيم الحامل أنفاس الحقول و لامست حواسي فاهتزّت و اضطربت كأوراق الأشجار ! دعيني أراكِ إن كنت لابسة من المادة ثوباً . أو مري النوم أن يغمض أجفاني فأراكِ بالمنام إن كنت معتوقة من التراب . دعيني ألمسكِ . أسمعيني صوتكِ . مزّقي هذا النقاب الحاجب كلّيتي و اهدمي هذا البناء الساتر ألوهيّتي و هبيني جناحاً فأطير وراءكِ إلى مسارح الملأ الأعلى إن كنتِ من سكانها أو لامسي عيني بالسحر فأتبعك إلى مكامن الجان إن كنت من عرائسها . ضعي يدكِ الخفيّة على قلبي و امتلكيني إن كنت حريّا باتّباعك " .

كان عليّ يهمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى نغمة متمايلة في أعماق صدره و بين ناظره و محيطه تنسل أشباح الليل كأنّها أبخرة متولدة من مدامعه السخينة ، و على جدران الهياكل تتمثّل له صور سحريّة بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة و هو فرح بدموعه ، مغتبط بلوعته ، سامع نبضات قلبه ، ناظر إلى ما وراء الأشياء كأنّه يرى رسوم هذه الحياة تضمحلّ ببطء و يحلّ مكانها حلم غريب بمحاسنه هائل بهواجسه ، و مثل نبيّ يتأمّل نجوم السماء مترقّبًا هبوط الوحي صار ينتظر مآتي الدقائق و تنهيداته المسرعة توقف أنفاسه الهادئة ، و نفسه تتركه و تسبح حوله ثمّ تعود إليه كأنّها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز .

***

لاح الفجر و ارتجفت السكينة لمرور نسيماته و سال النور البنفسجي بين دقائق الأثير ، و ابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له في الحلم طيف حبيبته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران الخرائب ، و صارت تتنقل بين تلك الأعمدة و تترنّم و تتناجى متنبّئة بمآتي النهار ، فانتصب عليّ واضعاً يده على جبهته الملتهبة و

نظر حوله بطرف جامد ، و مثل آدم عندما فتحت عينيه نفخة الله صار ينظر مستغرباً كلّ ما يراه . ثمّ اقترب من نعاجه و ناداها فقامت و انتفضت و مشت وراءه بهدوء نحو المروج الخضراء . سار عليّ أمام قطيعه و عيناه الكبيرتان محدّقتان إلى الفضاء الصافي و عواطفه المنصرفة عن المحسوسات تبيّن له غوامض الوجود و مستتراته و تريه ما غبر من الأجيال و ما بقي منها بلمحةٍ واحدة ، و بلمحةٍ واحدةٍ تنسيه كلّ ذلك و تعيد إليه الشوق و الحنين ، فيجد ذاته منحجباً عن روحه انحجاب العين عن النور ، فيتنهّد و مع كل تنهيدة تنسلخ شعلة من فؤاده المتقد .

بلغ الجدول المذيع بخريره سرائر الحقول فجلس على ضفته تحت أغصان الصفصاف المتدلية إلى المياه كأنّـها تروم امتصاص عذوبتها ، و انثنت نعاجه ترتعي الأعشاب و ندى الصباح يتلمّـع على بياض صوفها . و لم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات قلبه و تضاعف اهتزازات روحه ، و مثل راقد أجفلته أشعة الشمس تحرّك و تلفّت حوله فرأى صبيّـة قد ظهرت من بين الأشجار تحمل جرّة على كتفها و تتقدّم على مهل نحو الغدير و قد بلّـل النـّدى قدميها العاريتين .

و لمّـا بلغت حافة الجدول و انحنت لتملأ جرّتـها التفتت نحو الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني علي فشهقت و رمت بالجرّة ثمّ تراجعت قليلاً إلى الوراء و شخصت به شخوص ضائع وجد من يعرفه . . . مرّت دقيقة كانت ثوانيها مثل مصابيح تهدي قلبيهما إلى قلبيهما مبتدعة من السكينة أنغاماً غريبة تعيد إلى نفسيهما صدى تذكاراتٍ مبهمةٍ و تبيّـن الواحد منهما للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور و أشباح بعيدة عن ذلك الجدول و تلك الأشجار ، فكان كلّ منهما ينظر إلى الآخر نظرة استعطاف و يتفرّس فيه مستلطفاً ملامحه مصغياً لتنهداته بكلّ ما في عواطفه من المسامع ، مناجياً إيّاه بكلّ ما في نفسه من الألسنة ، حتى إذا ما تمّ التفاهم و تكامل التعارف بين الروحين عبر عليّ الجدول مجذوباً بقوةٍ خفيّـة و اقترب من الصبيّـة و عانقها و قبّـل شفتيها و قبّـل عنقها و قبّـل عينيها فلم تبدِ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذة العناق قد انتزعت منها إرادتها ، ورقّـة الملامسة قد أخذت منها قواها ، فاستسلمت استسلام أنفاس الياسمين لتموّجات الهواء ، و ألقت رأسها على صدره كمتعبٍ وجد راحة . و تنهدت تنهدة عميقة تشير إلى حدوث انبساط في فؤاد منقبض و تعلن ثورات جوانح كانت راقدة فأفاقت ، ثمّ رفعت راسها و نظرت إلى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة - لغة الأرواح – نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في أجساد من الألفاظ .

مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف و وحدانـيّة كليهما لسان ناطق بتوحيدهما ، و مسمع منصت لوحي المحبة ، و عين مبصرة مجد السعادة . تتبعهما الخراف مرتعية رؤوس الأعشاب و الزهور ، و تقابلهما العصافير من كلّ ناحيةٍ مرتـّلةً أغاني السحر!

و لما بلغا طرف الوادي ، و كانت الشمس قد طلعت و ألقت على تلك الروابي رداءً مذهباً ، جلسا بقرب صخرةٍ يحتمي البنفسج بظلّـها . و بعد هنيهة نظرت الصبيّـة في سواد عيني علي و قد تلاعب النسيم بشعرها كأنّ النسيم شفاه خفية تروم تقبيلها ، و شعرت بأنامل سحريّـة تداعب لسانها و شفتيها رغم إرادتها ، فقالت و في صوتها حلاوة جارحة :

" قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة كيلا نحرم ملذات الحبّ ، و مجد الشبيبة يا حبيبي ! "

فأغمض عليّ أجفانه و قد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم حلم طالما رآه في نومه ، و شعر بأجنحةٍ غير منظورةٍ قد حملته من ذلك المكان و أوقفته في حجرةٍ غريبةِ الشكل بجانب سرير ملقى عليه جثمان امرأةٍ جميلةٍ أخذ الموت بهاءها و حرارة شفتيها ، فصرخ ملتاعاً من هول المشهد ثمّ فتح أجفانه فوجد تلك الصبيّـة جالسة بجانبه و على شفتيها ابتسامة محبّـة و في لحظها أشعة الحياة ، فأشرق وجهه و انتعشت روحه و تضعضعت أخيلة رؤياه و نسي الماضي و مآتيه . . .

تعانق الحبيبان و شربا من خمرة القبل حتى سكرا و نام كلّ منهما ملتفـًّا بذراعي الآخر إلى أن مال الظلّ و أيقظتهما حرارة الشمس .

(*) مدينة الشمس: هي بعلبك أى مدينة بعل إله الشمس ، و قد دعاها الأقدمون مدينة الشمس (هليوبوليس) لأنها بنيت لعبادة هذا الإله ، و قد اتفق المؤرخون على أنها كانت أجمل مدينة في سوريا . أما الخرائب الباقية إلى يومنا هذا فأكثرها من بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا.

(**) عشتروت : هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور و صيدا و جبيل و بعلبك ، و بعض صفاتها قولهم : " موقدة شعلة الحياة و حارسة الشبيبة " و قد اخذ اليونان عبادتها من الفينيقيين و دعوها أفروديت ربة الحب و الجمال ، و الرومان يدعونها فينيس .

كانت العرب فى الجاهلية تقول إن الجنية إذا تعشقت فتى من الإنس منعته من الزواج و إن فعل سحرت عروسته أو أماتتها ، و هذه الاعتقادات الشعرية ما برحت حية فى بعض قرى لبنان .

(***) قال نبى الإسلام (ص) : " و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون " . و قال بوذا الهندى : " كنا بالأمس فى هذه الحياة و قد جئنا الآن و سوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة " .

(****) الحسينيون: قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في أيامنا هذه .

مرتا البانية (*)

1

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة ، فتركت يتيمة في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة.

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذّل التيتم ،فباتت غريبة في أرض مولدها ،وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة وكانت تسير في كل صباح عارية القدمين رثة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب وتجلس بظل الأغصان مترنمة مع العصافير باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المآكل ، متأملة بنمو الزهور ورفرفة الفراشات وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبية وليها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ،ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوما عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة. وعند مجيء الفجر ينهرها وليّها لقضاء حاجة فتهب من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه.

كذا مرت الأعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة ،فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في أعماق الزهرة ،وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه ،فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار وذات نفس كبيرة طاهرة منفّية بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ غير معروف جالس بين الأرض والشمس .

نحن الذين صرفوا معظم العمر فى المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى و المزارع المنزوية فى لبنان ، قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً و نقاوة ، تلك الحياة التى إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة فى الربيع ، مثقلة فى الصيف ، مستغلة فى الخريف ، مرتاحة فى الشتاء ، متشبهة بأمنا الطبيعة فى كل أدوارها . نحن أكثر من القرويين مالاً و هم أشرف منا نفوساً . نحن نزرع كثيراً و لا نحصد شيئاً ، أما هم فيحصدون ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا و هم أبناء قناعتهم . نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس و الخوف و الملل ، و هم يرتشفونها صافية .

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كل الأصوات ... ففي يوم من أيام الخريف المملوءة بتأوه الطبيعة جلست بقرب العين المنعتقة من أسر الأرض انعتاق الأفكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب أوراق الأشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ،ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلي أيام الثورات والحروب.

وبينما هي تنظر إلى الزهور والأشجار ،وتشعر معها بألم فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي، فالتفتت وإذا بفارس يتقدم نحوها ببطء ،ولما اقترب من العين وقد دلت ملامحه وملابسه على ترف

وكياسة ترجل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعودته من رجل قط، ثم سألها قائلاً:"قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل فهل لك أن تهديني أيتها الفتاة ؟" فأجابت وقد وقفت منتصبة على حافة العين :"الست أدري يا سيدي ولكني أذهب وأسأل وليّي فهو يعلم " .قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد أكسبها الحياء رقة وجمالا ،وإذ همت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال :"لا ،لا تذهبي" . فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوة في صوته تمنعها من الحراك . ولما اختلست من الحياء نظرة إليه رأته يتأملها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته وينظر بمودة وميل إلى قدميها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف الناعم ويتأمل بافتتان وشغف كيف لوحت الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها ،أما هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد الانصراف و لا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة ،أما مرتا فلم ترجع ،ولما عاد وليها من الحقل بحث عنها في تلك بين تلك الوهاد ولم يجدها ،فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوهات الهواء بين الأشجار .فرجع مكتئباً إلى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طوال ذلك الليل وكانت تقول في سرّها: رأيتها مرة في الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزق جسدها وهي تبتسم وتبكي !

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ،وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليها ،وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ، ثم تضمحل كأنها لهاث طفل على بلور النافذة.

2

جاء خريف سنة 1900 فعدت إلى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ،وقبل دخولي إلى المدرسة قضيت أسبوعاً كاملا أتجول مع أترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحرمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ،فكنا أشبه بعصافير رأت أبواب الأقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، و الشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب و تجعله يقظة قاسية ، فهل يجئ يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة و لذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجئ يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، و الإنسانية كتابه ، و الحياة مدرسته ؟ هل يجئ هذا اليوم ؟ لا ندرى ، و لكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحى ، و ذلك الارتقاء هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا و استدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمل العراك المستمر في ساحة المدينة ، وأسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ،اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي أطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث و الانكسار الأليم قال:

- أتشتري زهراً يا سيدي ؟

فنظرت إلى وجهه الصغير المصفر ، وتأملت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلا كأنه جرح عميق في صدر متوجع وذراعيه العاريتين النحيلتين وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملت كل هذه الأشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمر من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره و بغيتى ابتياع محادثته لأننى شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوى على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، و قل من يهتم بمشاهدتها لأنها موجعة . و لما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن و استأنس و نظر إليّ مستغرباً لأنه مثل أترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقة كأشياء قذرة لا شأن لها ، و ليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . و سألته إذ ذاك قائلاً :

- ما اسمك؟

فأجاب وعيناه مطرقتان إلى الأرض :

- اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت وأين أهلك ؟

قال: أنا ابن مرتا البانية.

قلت : وأين والدك؟

فهز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت:

- وأين أمك يا فؤاد؟

قال : مريضة في البيت.

تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصتها عواطفي مبتدعة صورا وأشباحا غريبة محزنة لأني عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن في بيروت مريضة .تلك الصبية التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والأوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على أكف الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء .

كنت أفكر وأتخيل هذه الأشياء والصبي ينظر إليّ كأنه رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي . ولما أراد الانصراف أمسكت بيده قائلاً :

- سر بي إلى أمك لأني أريد أن أراها ! .

فسار أمامي متعجباً صامتاً ، و من حين لآخر كان ينظر إلى الوراء ليرى إذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته .

في تلك الأزقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ،بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة ، وفي تلك المنعطفات الملتوية إلى اليمين وإلى الشمال التواء الأفاعي السوداء كنت أسير بخوف وتهيب وراء صبي من حداثته ونقاوة قلبة شجاعة لا يشعر بها من كان خبير بمكايد أجلاف القوم فى مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا و درة تاج السلاطين ، حتى إذا ما بلغنا أذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبق منه السنون غير جانب متداع . فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الأثاث غير سراج ضعيف يغالب بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدّل على عوز مبرح وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة نائمة قد حولت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين جدرانه قلباً أرق وألين من قلوب البشر .ولما اقترب الصبي منها منادياً :"يا أماه !..." التفتت إليه فرأته يومئ نحوي فتحركت إذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهيدات المرة قالت:

- ماذا تريد أيها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان . أما أنا فلم يبق لي ما أبيعه غير فضلات أنفاس متقطعة ، عما قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفي تسيل مع الكلام :

- لا تخافي مني يا مرتا فأنا لم أجيء إليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع .أنا لبناني عشت زمناً في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز . لا تخافي مني يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من أعماق نفس تتألم معها ، فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد أن تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها المرة بجمالها . و بعد سكينة ممزوجة بالتأوه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين إلى شئ غير منظور منتصب فى فضاء الغرفة ، و شفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، و عنقاً تتردد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت :

- جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني إن كان الإحسان على الخطاة براً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكني أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عارا ومذمة ، وحنانك علي يثمر لك عيبا ومهانة .ارجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعا ساترا وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق .إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إلي طهارتي ، و لا تمحو عيوبى ، و لا تزيل يد الموت القوية عن قلبى . أنا منفية بحكم تعاستى و ذنوبى إلى هذه الأعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب . أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب مني ، لأن الجامعة تحسبك دنساً و تقصيك عنها إذا فعلت. ارجع الآن و لا تذكر اسمى فى تلك الأودية المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه . وإذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البانية و لا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة :

- سوف ينظر الناس إلى ولدي بعيني السخرية والاحتقار قائلين: هذا ثمرة الإثم ،هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار هذا ابن الصدف .سوف يقولون عنه أكثر من ذلك لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن أمه قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها . سوف أموت و أتركه يتيماً بين

صبيان الأزقة وحيداً فى هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جباناً خاملاً و تهيج دمه إن كان شجاعاً عادلاً ، فإن حفظته السماء و شب رجلاً قوياً ساعد السماء على الذى جنى عليه و على أمه ، و إن مات و تملص من شبكة السنين وجدنى مترقبة قدومه هناك حيث النور و الراحة !

فقلت وقلبي يوحي إليّ :" لستِ كالأبرص يا مرتا وان سكنتِ بين القبور ،ولستِ دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين .إن أدران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحية ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلتها ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ،فلا تدخل أهراء رب الحقل. أنتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . أنت مظلومة و محتَقرة ، و خير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً ، و أخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قوياً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوهاً بميوله محاسن العواطف . النفس يا مرتا هى حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة الألوهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة و تغير صورتها و تمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها إلى مادة أخرى ، بل تزيده لمعاناً ، و لكن ويل للهشيم إذ تأتى النار و تلتهمه و تجعله رماداً ثم تهب الرياح و تذريه على وجه الصحراء .. إي مرتا .. ، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبيء في الهياكل البشرية .قد داستك تلك النعال بقسوة لكنها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . تعزي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة !"

كنت أتكلم و هى مصغية وقد أنارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم . ثم أومأت إليّ أن أجلس بجانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلمة عن مخبآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف أنه مائت . ملامح صبية فى ربيع العمر قد شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالى . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة و قوة ، فصارت اليوم مهزولة تترقب الانعتاق من قيود الحياة . و بعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها و قالت ودموعها تتكلم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها :

نعم أنا مظلومة ، أنا شهيدة الحيوان المختبيء في الإنسان ، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام .كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مر راكباً .. قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي إني جميلة وإنه قد أحبني فلا يتركني ، وإن البرية مملوءة وحشة و الأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى ... ثم ألوي علّي وضمني إلى صدره وقبلني ، وكنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة .أردفني على ظهر جواده وجاء بي إلى بيت جميل منفرد . ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة ... فعل كل ذلك مبتسما وساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبة ... و بعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذل نفسي غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل ... و هكذا قسمت حياتى إلى شطرين : شطر ضعيف متألم ، و شطر صغير يصرخ فى هدوء الليل طالباً الرجوع إلى الفضاء الواسع . في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس ...

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي فجاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغي ابتياع العرض بالمال وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد ..... آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبدية ، ثم أفلتها لأنها لم تكن لى وحدى ، فشريكى بها كان ولدى الذى أبعدته السماء عنها إلى هذه الحياة و ألقتنى فى أعماق هذه الهاوية ... و الآن ها هي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني لمضجعه الناعم !

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء :

ـ أيها العدل الخفىّ ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك أطلب وإليك أتضرع ، فارحمني و ارعَ بيمناك ولدي ، و تسلّم بيسراك روحى !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن وحنو ، ثم ميّلت عينيها ببطء و بصوت يكاد يكون سكينة قالت : " أبانا الذى فى السموات ... ليتقدس اسمك ... ليأتِ ملكوتك ... لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .. اغفر لنا ذنوبنا " .

وانقطع صوتها ،وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها .ثم اختلجت وتأوهت وابيض وجهها وفاضت روحها .وظلت عيناها محدقتين إلى ما لا يرى.

***

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مارتا البانية في تابوت خشبي ، وحملت على كتفي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يخفر القبور.ولم يشيعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة.

(*) نسبة إلى بان و هى قرية جميلة فى شمال لبنان .

يوحنا المجنون

1

فى أيام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح إلى الحقل سائقاً ثيرانه و عجوله ، حاملاً محراثه على كتفيه ، مصغياً لتغاريد الشحارير و حفيف أوراق الأغصان ، و عند الظهيرة كان يقترب من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء و يأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقى من الخبز للعصافير . و فى المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء ، كان يعود إلى البيت الحقير المشرف على القرى و المزارع فى شمال لبنان ، و يجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما المملوءة بأخبار الأيام شاعراً بدنو النعاس و الراحة معاً .

و فى أيام الشتاء كان يتكئ مستدفئاً بقرب النار ، سامعاً تأوه الأرياح و ندب العناصر ، مفكراً بكيفية تتابع الفصول ، ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج ، و الأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تُركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس و الرياح الشديدة .

و فى الليالى الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الخشبية و يأتى بكتاب العهد الجديد ، و يقرأ منه سراً على نور مسرجة ضعيفة ، متلفتاً بتحذر بين الآونة و الأخرى نحو والده النائم الذى منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع و يحرمونهم من " نعم الكنيسة " إذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شبيبته بين الحقل المملوء بالمحاسن و العجائب و كتاب يسوع المفعم بالنور و الروح . كان سكوتاً كثير التأملات يصغى لأحاديث والديه و لا يجيب بكلمة ، و يلتقى بأترابه الفتيان و يجالسهم صامتاً ناظراً إلى البعيد حيث يلتقى الشفق بازرقاق السماء . و إذا ما ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئباً ، لأن التعاليم التى يسمعها من على المنابر و المذابح هى غير التى يقرأها فى الإنجيل ، و حياة المؤمنين مع رؤسائهم هى غير الحياة الجميلة التى تكلم عنها يسوع الناصرى .

***

جاء الربيع و اضمحلت الثلوج فى الحقول و المروج ، و أصبحت بقاياها فى أعالى الجبال تذوب و تسير جداول جداول فى منعطفات الأودية ، و تجتمع أنهراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة ، فأزهرت أشجار اللوز و التفاح ، و أورقت قضبان الحور و الصفصاف ، و أنبتت الروابى أعشابها و أزاهرها ، فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواقد ، و عرف أن عجوله قد ملت ضيق المرابض ، و اشتاقت إلى المراعى الخضراء ، لأن مخازن

التبن قد شحت ، و زنابل الشعير قد نفدت . فجاء و حلها من معالفها و سار أمامها إلى البرية ساتراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادى بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب (*) ، فتفرقت عجوله مرتعية الأعشاب ، و جلس مستنداً إلى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادى و طوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات .

كان ذلك النهار من أواخر أيام الصوم ، و سكان تلك القرى المنقطعون عن اللحوم ، أصبحوا يترقبون بفضلات الصبر مجئ عيد الفصح . أما يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء لم يكن يفرق بين أيام الصيام و غيرها ، فالعمر كله كان صوماً طويلاً عنده ، و قوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين ، و الثمار المبتاعة بدم القلب ، فالانقطاع عن اللحوم و المآكل الشهية كان طبيعياً . و مشتهيات الصوم لم تكن فى جسده بل فى عواطفه ، لأنها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساة " ابن البشر " و نهاية حياته على الأرض .

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا ، و أسراب الحمام تتطاير مسرعة ، و الزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتحمم بأشعة الشمس ، و هو يقرأ فى كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه و يرى قبب الكنائس فى المدن و القرى المنثورة على جانبى الوادى ، و يسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه و تسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع فى الشوارع سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : - هنا شفى العميان و أقام المقعدين . و هناك ضفروا له إكليلاً من الشوك و وضعوه على رأسه - فى هذا الرواق وقف يكلم الجموع بالأمثال ، و فى ذلك القصر كتفوه على العمود و بصقوا على وجهه و جلدوه - فى هذا الشارع غفر للزانية خطاياها و فى ذاك وقع على الأرض تحت أثقال صليبه .

و مرت الساعة و يوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد ، و يتمجد معه بالروح ، حتى إذا ما انتصف النهار قام من مكانه و نظر حوله فلم يرَ عجوله ، فمشى متلفتاً إلى كل ناحية مستغرباً اختفاءها فى تلك المروج السهلة . و لما بلغ الطريق المنحنية بين الحقول انحناء خطوط الكف رأى عن بعد رجلاً بملابس سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ، و لما اقترب منه و عرف أنه أحد رهبان الدير ، حياه بحنى رأسه ثم سأله قائلاً : " هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا أبتاه ؟ " فنظر إليه الراهب متكلفاً إخفاء حنقه و أجاب بخبث :

" نعم رأيتها فهى هناك ، تعالَ و انظرها " . فسار يوحنا وراء الراهب حتى بلغا الدير ، فإذا بالعجول ضمن حظيرة موثقة بالحبال يخفرها أحد الرهبان و فى يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت ، و إذ همّ يوحنا ليقودها أمسكه الراهب بعباءته و التفت نحو رواق الدير و صرخ بأعلى صوته : " هو ذا الراعى المجرم قد قبضتُ عليه " . فهرول القسس و الرهبان من كل ناحية يتقدمهم الرئيس و هو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة أثوابه و انقباض سحنته ، و أحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ، فنظر يوحنا إلى الرئيس و قال بهدوء : " ماذا فعلت لأكون مجرماً ، و لماذا قبضتم علىّ ؟ " فأجابه الرئيس و قد بانت القساوة على وجهه الغضوب ، و بصوت خشن أشبه بصرير المناشير قال : " قد ارتعت عجولك زرع الدير و قضمت قضبان كرومه ، فقبضنا عليك لأن الراعى هو المسؤول عما تخربه مواشيه " . فقال يوحنا مستعطفاً : " هى بهائم لا عقل لها يا أبتاه ، و أنا فقير لا أملك غير قوى ساعدى و هذه العجول ، فاتركنى أقودها و أسير واعداً إياك بأن لا أجئ إلى هذه المروج مرة أخرى " . فقال الرئيس و قد تقدم قليلاً إلى الأمام و رفع يده نحو السماء : " إن الله قد وضعنا ههنا و وكل إلينا حماية أراضى مختاره اليشاع العظيم ، فنحن نحافظ عليها ليلاً و نهاراً بكل قوانا لأنها مقدسة ، و هى كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فإذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الأعشاب فى أجواف عجولك سموماً آكلة ، و لكن ليس من سبيل إلى الامتناع لأننا نبقى بهائمك فى حظيرتنا حتى تفى آخر فلس عليك " .

و همّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا ، و قال متذللاً متوسلاً : " أستحلفك يا سيدى بهذه الأيام المقدسة ، التى تألم فيها يسوع و بكت لأحزانها مريم ، أن تتركنى أذهب بعجولى . لا تكن قاسى القلب علىّ ، فأنا فقير مسكين و الدير غنىّ عظيم ، فهو يسامح تهاملى و يرحم شيخوخة والدى " . فالتفت إليه الرئيس و قال بهزء : " لا يسامحك الدير بمثقال ذرة أيها الجاهل ، فقيراً كنت أم غنياً ، فلا تستحلفنى بالأشياء المقدسة لأننا أعرف منك بأسرارها و خفاياها ، و إن شئت أن تقود عجولك من هذه المرابض فافتدِها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع " . فقال يوحنا بصوت مختنق : " إننى لا أملك بارة واحدة يا أبتاه . فاشفق علىّ و ارحم فقرى " . فأجاب الرئيس بعد أن مشط لحيته الكثيفة بأصابعه : " اذهب و بع قسماً من حقلك و عد بثلاثة دنانير ، فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه ، و تهبط فى الآخرة إلى الجحيم حيث النار المؤبدة " .

فسكت يوحنا دقيقة و قد أبرقت عيناه و انبسط محياه و تبدلت لوائح الاسترحام بملامح القوة و الإرادة ، فقال بصوت تمتزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة : " هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه و مورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالذهب و الفضة ؟ أين العدل أن يزداد الفقير فقراً و يموت المسكين جوعاً كيما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ " فقال الرئيس هازاً رأسه استكباراً : هكذا يقول يسوع المسيح " مَن له يُعطى و يُزاد ، و مَن ليس له يؤخذ منه " .

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه فى صدره ، و كبرت نفسه ، و تعالت قامته عن ذى قبل ، كأن الأرض قد نمت تحت قدميه ، فانتشل الإنجيل من جيبه كما يستل الجندى سيفه للمدافعة ، و صرخ قائلاً : " هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب أيها المراؤون . هكذا تستخدمون أقدس ما فى الحياة لتعميم شرور الحياة . فويل لكم إذ يأتى ابن " البشر " ثانية و يخرب أديرتكم و يلقى حجارتها فى هذا الوادى ، محرقاً بالنار مذابحكم و رسومكم و تماثيلكم ! ويل لكم من دماء يسوع الزكية و دموع أمه الطاهرة ، إذ تنقلب سيلاً عليكم و تجرفكم إلى أعماق الهاوية ! ويل و ألف ويل لكم أيها الخاضعون لأصنام مطامعكم ، الساترون بالأثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم ، المحركون بالصلاة شفاهكم و قلوبكم جامدة كالصخور ، الراكعون بتذلل أمام المذابح و نفوسكم متمردة على الله . قد قدتمونى بخباثة إلى هذا المكان المملوء بآثامكم ، و كمجرم قبضتم علىّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لى و لكم على السواء . و لما استعطفتكم باسم يسوع و استحلفتكم بأيام حزنه و أوجاعه استهزأتم بى كأنى لم أتكلم بغير الحماقة و الجهالة . خذوا و ابحثوا فى هذا الكتاب و أرونى متى لم يكن يسوع غفوراً . و اقرأوا هذه المأساة السماوية و أخبرونى أين تكلم بغير الرحمة و الرأفة ، أفى موعظته فى الجبل ، أم فى تعاليمه فى الهيكل أمام مضطهدى تلك الزانية المسكينة ، أم على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضمّ الجنس البشرى . انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن و القرى الفقيرة ، ففى منازلها يتلوى المرضى على أسرة الأوجاع ، و فى حبوسها تفنى أيام البائسين ، و أمام أبوابها يتضرع المتسولون ، و على طرقها ينام الغرباء ، و فى مقابرها تنوح الأرامل و الثكالى ، و أنتم ههنا تتمتعون براحة التوانى و الكسل ، و تتلذذون بثمار الحقول و خمور الكروم . فلم تزوروا مريضاً ، و لم تفتقدوا سجيناً ، و لم تطعموا جائعاً ، و لم تؤووا غريباً ، و لم تعزوا حزيناً . و ليتكم تكتفون بما لديكم و تقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم ، فأنتم تمدون أيديكم كما تمد الأفاعى رؤوسها ، و تقبضون بشدة على ما وفرته الأرملة من عمل يديها و ما أبقاه الفلاح لأيام شيخوخته " .

و سكت يوحنا ريثما استرجع أنفاسه ثم رفع رأسه بفخر و قال بهدوء : " أنتم كثار ههنا و أنا وحدى . افعلوا بى ما شئتم ، فالذئاب تفترس النعجة فى ظلمة الليل لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادى حتى يجئ الفجر و تطلع الشمس " .

كان يوحنا يتكلم و فى صوته قوة علوية توقف فى أبدان الرهبان الحركة و تثير فى نفوسهم الغيظ و الحدة ، و مثل غربان جائعة فى أقفاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً و أسنانهم تصرف بشدة مترقبين من رئيسهم إشارة ليمزقوه تمزيقاً و يسحقوه سحقاً ، حتى إذا ما انتهى من كلامه و سكت سكوت العاصفة بعد تكسيرها الأغصان المتشامخة و الأنصاب اليابسة ، صرخ الرئيس بهم قائلاً :

" اقبضوا على هذا المجرم الشقىّ و انزعوا منه الكتاب و جروه إلى حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجدف على مختارى الله لا يغفر له ههنا و لا فى الأبدية " . فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة و قادوه مكتوفاً إلى حجرة ضيقة و أقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفهم و رفس أرجلهم .

فى تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفق العدو لأسره ، و نظر من الكوة الصغيرة المطلة على الوادى المملوء بنور النهار ، فتهلل وجهه و شعر بلذة روحية تعانق نفسه و طمأنينة مستعذبة تملك عواطفه ، فالحجرة الضيقة لم تسجن غير جسده . أما نفسه فكانت حرة تتموج مع النسيم بين الطلول و المروج ، و أيدى الرهبان التى آلمت أعضاءه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصرى . و المرء لا تعذبه الاضطهادات إذا كان عادلاً ، و لا تفنيه المظالم إذا كان بجانب الحق ، فسقراط شرب السم مبتسماً ، و بولس رُجم فارحاً . و لكن هو الضمير الخفى نخالفه فيوجعنا ، و نخونه فيقضى علينا .

و علم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت أمه إلى الدير مستعينة بعصاها ، و ترامت على قدمى الرئيس تذرف الدموع و تقبل يديه ليرحم ابنها و يغتفر جهله . فقال لها بعد أن رفع عينيه نحو السماء كمترفع عن العالميات : " نحن نغتفر طيش ابنك و نسامح جنونه و لكن للدير حقوقاً مقدسة لابد من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلات الناس ، أما اليشاع العظيم فلا يسامح و لا يغفر لمن يتلفون كرومه و يرتعون زرعه "

. فنظرت إليه الوالدة و الدمع ينسكب على وجنتيها المتجعدتين بأيدى الشيخوخة ، ثم نزعت قلادة فضية من عنقها و وضعتها فى يده قائلة : " ليس لدىّ غير هذه القلادة يا أبتاه ، فهى عطية والدتى يوم اقترانى ، فليقبلها الدير كفارة عن ذنوب وحيدى " . فأخذ الرئيس القلادة و وضعها فى جيبه ثم قال و والدة يوحنا تقبل يديه شكراً و امتناناً : " ويل لهذا الجيل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب و أصبح الأبناء يأكلون الحصرم و الآباء يضرسون . اذهبى أيتها المرأة الصالحة و صلى من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء و تعيد إليه صوابه " .

و خرج يوحنا من أسره و مشى ببطء أمام عجوله بجانب أمه المنحنية على عصاها تحت أثقال السنين ، و لما بلغ الكوخ قاد العجول إلى معالفها و جلس بسكينة قرب النافذة يتأمل اضمحلال نور النهار ، و بعد هنيهة سمع والده يهمس فى أذن أمه هذه الكلمات : " كم عارضتِنى يا سارة عندما أقول لكِ إن ولدنا مختل الشعور ، و الآن أراكِ لا تعترضين لأن أعماله قد حققت كلامى و رئيس الدير الوقور قد قال لكِ اليوم ما قلته أنا منذ سنين "

و ظل يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة متلونة بأشعة الشمس .

2

جاء عيد الفصح و تبدل الانقطاع عن المآكل بالإكثار من المشتهيات ، و كان قد تم بناء الهيكل الجديد المتعالى بين المساكن فى مدينة بشرى كصرح أمير قائم بين أكواخ الرعايا . و كان القوم يترقبون قدوم أحد الأساقفة ، لتكريسه و تقديس مذابحه ، و لما شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً على الطريق و أدخلوه المدينة بين تهاليل الفتيان و تسابيح الكهنة و أصوات الصنوج و طنين الأجراس و النواقيس ، و لما ترجل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش و اللجام الفضى ، قابله الأئمة و الزعماء بمستطاب الكلام ، مترحبين به بالقصائد و الأناشيد المصدرة بالمديح و المذيلة بالتبجيل ، حتى إذا ما بلغ الهيكل الجديد ارتدى الملابس الحبرية الموشاة بالذهب ، و لبس التاج المرصع بالجواهر ، و تقلد عصا الرعاية المنمقة بالنقوش البديعة و الحجارة الكريمة و طاف حول الهيكل منغماً مع الكهنة الصلوات و التقاسيم ، و قد تصاعدت حوله روائح البخور الطيبة ، و شعشعت الشموع الكثيرة ، و كان يوحنا فى تلك الساعة واقفاً بين الرعاة و الزارعين على رواق مرتفع يتأمل بعينيه الحزينتين هذا المشهد ، و يتنهد بمرارة و يتأوه بغصات موجعة إذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريرية مطرزة ، و أوانى ذهبية مرصعة ، و مباخر و مشاعل فضية ثمينة ، و من الأخرى جماعة من الفقراء و المساكين الذين أتوا من القرى و المزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا الفصح و الاحتفال بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة ترتدى القطيفة و الأطالس ، و من الأخرى تعاسة تلتف بالأطمار البالية . ههنا فئة قوية غنية تمثل الدين بالتنغيم و التعزيم ، و هناك شعب ضعيف محتقر يفرح سراً بقيامة يسوع من بين الأموات و يصلى بسكينة هامساً فى مسامع الأثير تنهيدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة . ههنا رؤساء و زعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شئ بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدى ، و هناك بؤساء و زارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة ، ربانها الموت و قد كسرت الأمواج دفتها ، و مزقت الرياح شراعها ، فأمست فى هبوط و صعود ، بين غضب اللجة و هول العاصفة . ههنا الاستبداد القاسى ، و هناك الخضوع الأعمى . فأيهما كان مولداً للآخر ؟ هل الاستبداد شجرة قوية لا تنبت فى غير التربة المنخفضة ، أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الأشواك ؟

بهذه التأملات الأليمة و هذه الأفكار المعذبة كان يوحنا مشغولاً و قد بكّل زنديه على صدره كأن حنجرته قد ضاقت عن أنفاسه فخاف أن يتمزق صدره حناجر و منافذ . حتى إذا ما انتهت حفلة التكريس و همّ الشعب بالانصراف و التفرق ، شعر بأن فى الهواء روحاً تنتدبه واعظاً لها ، و فى المجموع قوة تحرك روحه و توقفه خطيباً أمام السماء و الأرض أسر إرادته فتقدم إلى طرف الرواق و رفع عينيه و أشار بيده نحو العلاء و بصوت عظيم يستدعى المسامع و يستوقف النواظر صرخ قائلاً :

" انظر يا يسوع الناصرى الجالس فى قلب دائرة النور الأعلى . انظر من وراء القبة الزرقاء إلى هذه الأرض التى لبست بالأمس من عناصرها رداء . انظر أيها الحارس الأمين ، فقد خنقت أشواك الوعر أعناق الزهور التى أنعشت بذورها بعرق جبينك . انظر أيها الراعى الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذى حملته على منكبيك . انظر فدماؤك الزكية قد غارت فى بطن الأرض ، و دموعك السخينة قد جفت فى قلوب البشر ، و أنفاسك الحارة قد تضعضعت أمام رياح الصحراء ، و أصبح هذا الحقل الذى قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين ، و تنتزع أكف الظالمين أرواح الضعفاء ... إن صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش ، و نواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر ، فالخراف التى بعثتها من أجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزق بأنيابها أجنحة الخراف التى ضممتها بذراعيك ، و كلمة الحياة التى أنزلتها من صدر الله قد توارت فى بطون الكتب و قام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس . لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس و معابد كسوها بالحرير المنسوج و الذهب المذوّب ، و تركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية فى الأزقة الباردة ، و ملأوا الفضاء بدخان البخور و لهيب الشموع ، و تركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز ، و أفعموا الهواء بالتراتيل و التسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى و تنهيدات الأرامل . تعالَ ثانية يا يسوع الحيّ و اطرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها أفاعى روغهم و احتيالهم . تعالَ و حاسب هؤلاء القياصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم و ما لله . تعالَ و انظر الكرمة التى غرستها يمينك ، فقد أكلت جذوعها الديدان ، و سحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل . تعالَ و انظر الذين ائتمنتهم على السلام ، فقد انقسموا على ذواتهم و تخاصموا و تحاربوا ، و لم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة و قلوبنا المضنكة ... فى أعيادهم و احتفالاتهم يرفعون أصواتهم بجسارة قائلين : المجد لله فى العلى و على الأرض السلام و بالناس المسرة . فهل يتمجد أبوك السماوى بأن تلفظ اسمه الشفاه الأثيمة و الألسنة الكاذبة ؟ و هل على الأرض سلام و أبناء الشقاء فى الحقول يفنون قواهم أمام وجه الشمس ليطعموا فم القوى و يملأوا جوف الظالم ؟ و هل بالناس المسرة و البؤساء ينظرون بأعين كسيرة إلى الموت نظرة المغلوب إلى المنقِذ ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو ؟ هل هو فى أعين الأطفال المتكئين على صدور الأمهات الجائعات فى المنازل المظلمة الباردة ؟ أم فى أجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية يتمنون القوت الذى يرمى به قسس إلى خنازيرهم المسمنة و لا يحصلون عليه ؟ ما هى المسرة يا يسوع الجميل ، أبأن يشترى الأمير بفضلات الفضة قوى الرجال و شرف النساء ، و بأن نسكت و نبقى عبيداً بالنفس و الجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم و بريق حجارتهم و أطالس ملابسهم ، أم بأن نصرخ متظلمين منددين فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم و سنابك خيولهم فتنسحق أجساد نسائنا و صغارنا و تسكر الأرض من مجارى دمائنا ؟ .. امدد يدك يا يسوع القوى و ارحمنا لأن يد الظلوم قوية علينا ، أو أرسل الموت ليقودنا إلى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل صليبك إلى ساعة مجيئك الثانى ، لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هى ظلمة تتسابق فيها الأشباح الشريرة ، و وادٍ تدب فى جوانبه الثعابين المخيفة . و لا الأيام أيام عندنا ، بل هى أسياف سنينة يخفيها الليل بين لحف مضاجعنا و يشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما تقودنا محبة البقاء إلى الحقول . ترأف يا يسوع بهذه الجموع المنضمة باسمك فى يوم قيامتك من بين الأموات و ارحم ذلتهم و ضعفهم " .

كان يوحنا يناجى السماء و الشعب حوله بين مستحسن راضٍ و مستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو يتكلم عنا أمام السماء لأننا مظلومون . و ذا يقول : هو مسكون يتكلم بلسان روح شريرة . و ذاك يقول : لم نسمع قط مثل هذا الهذيان من آبائنا و جدودنا و لا نريد أن نسمعه الآن . و آخر يهمس فى أذن قريبه : أحسست بقشعريرة سحرية تهز قلبى فى داخلى عندما سمعتُ صوته ، فهو يتكلم بقوة غريبة . و غيره يجيب : نعم و لكن الرؤساء أعرف منا باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم .

و بينما هذه الأصوات تتصاعد من كل ناحية و تتآلف كهدير الأمواج ثم تضيع فى الهواء ، جاء أحد الكهنة و قبض على يوحنا و أسلمه للشرطة فقادوه إلى دار الحاكم ، و لما استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه ، فأنزلوه إلى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجرى .

و فى صباح النهار التالى جاء والد يوحنا و شهد أما الحاكم بجنون وحيده قائلاً : " طالما سمعته يهذى فى وحدته يا سيدى ، و يتكلم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها ، فكم سهر الليالى مناجياً السكون بألفاظ مجهولة ، منادياً أخيلة الظلمة بأصوات مخيفة تقارن تعازيم العرافين المشعوذين . سل فتيان الحى يا سيدى فقد جالسوه و عرفوا انجذاب عاقلته إلى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، و إن تكلم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة لها بأحاديثهم . سل أمه فهى أدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسية ، فقد شاهدته مرات ناظراً إلى الأفق بعينين زجاجيتين جامدتين و سمعته متكلماً بشغف عن الأشجار و الجداول و الزهور و النجوم ، مثلما تتكلم الأطفال عن صغائر الأمور . سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تنسكهم و تعبدهم ، كافراً

بقداسة معيشتهم . و هو مجنون يا سيدى ، و لكنه شفوق عليّ و على أمه ، فهو يعولنا فى أيام الشيخوخة و يذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، و اغتفر جنونه باعتبارك حنوّ الوالدين " .

أفرج عن يوحنا ، و شاع فى تلك النواحى جنونه ، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله ، و الصبايا ينظرن إليه بأعين آسفة قائلات : للسماء شؤون غريبة فى الإنسان ، فهى التى جمعت فى هذا الفتى بين جمال الوجه و اختلال الشعور ، و قارنت بين أشعة عينيه اللطيفة و ظلمة نفسه المريضة .

***

بين تلك المروج و الروابى الموشاة بالأعشاب و الزهور ، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفة عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى ، و ينظر بعينين دامعتين نحو القرى و المزارع المنتثرة على كتفى الوادى مردداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة : أنتم كثار و أنا وحدى ، فقولوا عنى ما شئتم ، و افعلوا بى ما أردتم ، فالذئاب تفترس النعجة فى ظلمة الليل ، و لكن آثار دمائها تبقى على حصباء الوادى حتى يجئ الفجر و تطلع الشمس .

(*) هو دير غنى فى شمال لبنان واسع الأراضى ، يدعى دير اليشاع النبى ، يقطنه عشرات من الرهبان المعروفين بالحلبيين .